الأهرام

المصدر: الاهرام

التاريخ : ٤ يونيو ٢٠٠٢

يوم ٦ سبتمبر ٢٠٠١ (أى قبل خمسة ايام فقط من يوم الثلاثاء المفصلى البائس)، اقام الرئيس جورج بوش احتفالا خاصا ـ سجلت أحداثه وسائل الإعلام ـ أعلن فيه انه قد قرر اختيار السيناتور جون دانفورث ممثلا شخصيا له لدفع «عملية السلام فى السودان» ولقد قام السيناتور صاحب المعرفة والخبرة بما عهد به إليه بهمة ونشاط وذكاء. ولاننا نعيش عصر الشفافية، فقد قام دانفورث أخيرا (وتحديدا فى ٢٦ أبريل الماضى) بتقديم تقرير مصاغ بعناية وصدق للرئيس بوش فتولد ـ مع نشر هذا التقرير ـ إحساس عام بأنه سيكون البداية الفعلية لطريق آخر شاق وطويل، «قد» يضع السودان على بداية «سكة السلامة» فتكون نهاية لحقبة تعيسة من تاريخه الحديث، إذ كانت مسرحا لحرب أهلية متقطعة، وكان أخرها حربا دامية متصلة لمدة ١٨ عاما من العذاب، وبات واضحا أن الصراع العسكرى لن ينتصر فيه أى من الطرفين. ولما كان «الشأن السودانى» أمرا حيويا واستراتيجيا لمصر، وسيظل كذلك لتاريخ منظور، لذا أثرت أن أنقل للقارئ المصرى بالذات أجزاء كثيرة من هذه الوثيقة المهمة والصريحة والعملية لأنها ـ فى الأغلب ـ ستحدد:

مستقبل السلام فى السودان (١)

غدا أكثر إشراقا

د. ميلاد حنا

حاولت ـ قدر المستطاع ـ كفرد محب وربما عاشق للسودان ـ ومن خلال مقالات بالأهرام وغيرها ـ أن أضع أمام الرأى العام المصرى والعربى الحقائق والمعلومات لعله يسهم فى إحلال السلام فى السودان، فقد عز على ما أشاهده من نماذج المعاناة والشقاء والبؤس الذى تحمله الشعب السودانى ـ قيادة وقواعد ـ أثرياء وفقراء ـ خلال هذه الحرب الأهلية الدامية التى نجمت من خلال إحساس مناطق «كثيرة» ـ من هذا القطر المترامى الأطراف ـ بالظلم والقهر لسنوات طويلة، خصوصا أن الاتفاقات التى كانت توقع بين أطراف النزاع (وبالذات بين الحكومة التى تمثل الشمال العربى المسلم، والقيادات الثائرة المعبرة عن الجنوب الإفريقى متعدد الديانات والعقائد) نقول: كانت الاتفاقات توقع ثم تنفذ بكل حسن النية ولكن دون ضمانات دولية، لذا كانت تنقض من الطرف الأقوى أى السلطة القابضة على الحكم فى الخرطوم، إلى ان جاء الانقلاب العسكرى الأخير فى ٣٠ يونيو عام ١٩٨٩ وفرض مشروعه «الحضارى» متوهما أنه سيكون «القاعدة» التى سيقود منها العالم العربى السنى متشبها بما جرى فى إيران عام ١٩٧٩ عندما استولى الإمام الخمينى على السلطة وأقام بالفعل جمهورية إسلامية هزت العالم وقتها، لكنها ـ ومن خلال تفاعلها مع العالم وإدراكها لمعطيات العصر ـ وخلال ٢٣ عاما ـ تطورت كثيرا حتى صارت «قابلة للآخر»، بل ودعا الإمام والرئيس خاتمى إلى «حوار الحضارات» من خلال «إعلان طهران» الذى أصدرته مجموعة دول المؤتمر الإسلامى فى ٥ مايو عام ١٩٩٩، والمنتظر أن تقود إيران حركة دينية مستنيرة، تتحاور مع الغرب، وقد لمست ذلك بوضوح من خلال الأوراق والدراسات التى قدمها رموز الحركة الاصلاحية الإيرانية فى الندوة الدولية التى عقدت أخيرا فى دمشق بدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» التى ستعقد ندوة دولية أخرى فى لندن من ١٩ إلى ٢١ يونيو الحالى فى إطار مسلسل من الندوات والدراسات تهدف لبناء جسور ثقافية بين الإسلام والغرب، وأتصور أنه طريق طويل سوف ينزع فتيل نيران الحرب الأمريكية ليحولها تدريجيا إلى حرب «إعلامية» فى طريقه إلى حوار راق قابل لمبدأ أن «الثراء هو فى التنوع».

وهكذا تدافعت الأحداث منذ عام ١٩٩٥ حتى الآن محليا داخل السودان وفى المنطقة العربية، بل وعلى مستوى العالم لتفرض على حكومة «الإنقاذ» ومشروعها «الحضارى» أوضاعا جديدة غيرت كثيرا من توجهاتها السابقة فصارت أكثر مرونة قابلة للحوار مع الآخر، فضلا عن أن ما خلفته الحرب من ملايين القتلى ومآسى التشرد والهجرة القسرية الداخلية والخارجية قد حرك عشرات من الهيئات الدولية والأهلية فى أوروبا وأمريكا لأنها مهتمة بشئون اللاجئين والجوع وقتلى الحرب الأهلية، فقدمت لسنوات طويلة مساعدات «إنسانية» ضخمة، ولكنها انزعجت من استمرار المعاناة وصارت تشكو من نزيف مساعداتها النقدية والعينية فضغطت على حكوماتها وتساءلت: أليس من نهاية لهذه المآسى وهذا النزيف الإنسانى والمالى؟ فتحركت دول غربية كثيرة فى مقدمتها أمريكا وانجلترا والنرويج وسويسرا وغيرها، مما جعل للسودان «ملفا» فى معظم دول أوروبا وأمريكا والمنظمات الدولية. واستوقف نظرى وجود دبلوماسى «متخصص» لمتابعة مجريات الأمور فى السودان، فصارت مشكلة دولية بالفعل.

وكان طبيعيا ـ خلال هذه السنوات من عام ١٩٨٩ حتى الآن ـ أن يظهر اهتمام بالقضية السودانية فى إفريقيا، فهى محاطة بتسع دول لها حدود مشتركة معها، واللاجئون يعبرونها فى يسر حسب حركة الحرب والمعاناة والهروب من القتل، فكان أن نوقشت فى منظمة «الإيجاد» (وهى منظمة تشمل عدة دول تقع فى شرق إفريقيا تتعاون فيما بينها لمقاومة التصحر ونقص الغذاء) واهتمت هذه المنظمة بإنهاء الصراع والحرب الأهلية فى السودان، فهى صاحبة مصلحة لتأثر بلادها وحدودها من خلال الهروب من الحرب او الإعداد والتعبئة لقوات مقاتلة متمرسة على الكر والفر فى أدغال إفريقيا، ثم تدخلت منظمة الإيجاد مرات عديدة بالفعل للمصالحة بين الطرفين المتصارعين بالسلاح والقتال وهما: حكومة السودان وحركة جارانج، ومن سنوات طويلة قدمت مبادرة عرفت بالاسم الرمزى «مبادرة الإيجاد»، وبرغم أن لهذه المبادرة «سكرتارية دائمة» تتابع وتخطط وتحرك وتدعو الطرفين المتحاربين للمفاوضة، فإنها ـ كما سيتضح من تقرير دانفورث ـ لم تصل إلى نتيجة.

وبعدها بسنوات تحركت بعض الدول العربية، وعقدت جملة اتصالات ومباحثات مع «كل» فرقاء وقيادات السودان، وكان معظمهم لاجئين بها هاربين من اضطهاد حكومة «الإنقاذ» ووصلوا إلى إعلان به نقاط تسع مقبولة منهم جميعا أصبح يشار إليه بعبارة «المبادرة المصرية ـ الليبية»، أو المبادرة المشتركة (اختصارا)، ولكن العجيب هو أن المبادرة ليست لها آلية أى سكرتارية للمتابعة، ومن الطبيعى ـ وكما يذكر دانفورث ـ لم تكن لها فاعلية تذكر، ولم تصل أى من المبادرتين إلى إيقاف

إثراء المعارف الرقمية
www.ethraadl.com

لإطلاق النار أو برنامج يوصل إلى حل سلمى لسودان جديد حتى ظن بعض الخبثاء أن الوضع الحالى للسودان «مريح» لجيرانه المراقبين، وتركوا الأمر لقيادات السودان التى تحارب أو تلك التى تراقب وتناقش دون طائل!!

■■■

ولد جون دانفورث John Danforth بمدينة سان لويس بولاية ميسورى فى ٥ سبتمبر عام ١٩٣٦، ودرس القانون فى جامعة برنستون وتخرج منها عام ١٩٥٨ ثم تابع الدراسة العليا بجامعة ييل Yale فى مجال القانون واللاهوت حتى عام ١٩٦٣، وبعدها تم رسامته قسا فى الكنيسة البروتستانتية المشيخية، وفى الوقت نفسه مارس مهنة المحاماة بمدينة نيويورك من عام ١٩٦٣ إلى أن انتخب «سيناتور» لولاية ميسورى Missouri من عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٩٥، وكان قبلها قد اختير «النائب العام» لهذه الولاية الشهيرة، وهكذا نلمس أنه قد اكتسب - كشخصية عامة - «حنكة» اكسبته شهرة اتسمت بالإنصاف والمصداقية والموضوعية، وهى أمور اهلته لأن يختاره الرئيس بوش ليكون مفوضه الخاص للسلام Special Envoy فى ٢٠٠١/٩/٦، أى فى اليوم التالى لعيد ميلاده الـ٦٥، ومن هنا ندرك اسلوب الدول الكبرى فى اختيار من يمثلها فى المهام الدقيقة المهمة، واترك للقارئ الحكم له أو عليه من خلال بعض فقرات التقرير الذى قدمه للرئيس بوش يوم ٢٦ ابريل عام ٢٠٠٢ نذكرها على النحو التالى:

● فضلت منذ أن بدأت مهمتى أن أقترب من المشكلة بطريقة المنشط المساعد Catalyist الذى يحفز ليولد التقارب بين المبادرات المقدمة من دول مجاورة للسودان، خصوصا مصر وكينيا، وكذلك بأن أشرك الدول المهتمة بقضية السودان مثل كندا والنرويج وبعض الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى.

● ولكى أنجز مهمتى سافرت مرتين إلى السودان لمقابلة كبار القادة لكل من الحكومة السودانية، وكذلك الحركة الشعبية لتحرير السودان، وهما الخصمان المتنازعان والمتصارعان فى السودان، وكذلك قابلت العديد من أفراد ومجموعات المجتمع المدنى.

● قابلت الرئيس الكينى موى والرئيس الأوغندى موسيفينى والرئيس المصرى مبارك لحث جهود بلادهم لإحلال سلام منصف فى السودان، ولقد أعربوا جميعا عن إيمانهم بأن المشاركة النشيطة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية هى الأمل الوحيد لإنهاء هذا الصراع فى نهاية المطاف.

● ولتحقيق مهمتى داخل السودان، قررت أن أتخذ منحى مختلفا تماما لأن تاريخ السودان ملىء بعشرات المقترحات والاتفاقات لإنهاء القتال، وكان الأمر الوحيد المشترك بين هذه المقترحات هو أن أيا منها لم ينفذ، كما أن أيا منها لم يقرب السودان من السلام، فبعد ١٨ عاما ومشروع مليونى شخص، وتشريد ٤,٥ مليون إنسان، استمرت الحرب.

● ركزت مقترحاتى - أولا وقبل كل شىء - على حماية المدنيين السودانيين العاديين الذين يجدون أنفسهم - فى الغالب - محاصرين بين قوات ونيران الطرفين المتصارعين، وفى اقتراحى الثانى ركزت على إلزام الأطراف بتغيير نمط سلوكها السابق، وذلك باتخاذ خيارات سياسية صعبة، كما دعمت المقترحات - ثالثا - بمشاركة ومراقبة دولية لتعظيم فرص احترامها، وأخيرا ركزت - فى المقترح الرابع - على توافر وصول المعونات الإنسانية إلى المناطق المنكوبة فى السودان، وبفضل الإقناع والضغط والمثابرة استطعت - فى نهاية المطاف - الحصول على موافقة الطرفين على هذه المقترحات الأربعة.

● فى أثناء زيارتى الأولى (فى نوفمبر عام ٢٠٠١) لم نتلق سوى التزامات شفوية مبهمة على ثلاثة فى هذه المقترحات، فقد واجهنا معارضة شديدة بالنسبة لاقتراحنا الخاص بإنهاء الهجمات العسكرية المتعمدة ضد المدنيين. لقد عارضت الحكومة وضع الية دولية لضمان الالتزام بهذه الجزئية المحددة، واحتاج الأمر إلى ثلاثة أشهر من المفاوضات المضنية والمكثفة.

● كانت الموافقات صعبة لأننا رغبنا فى تسجيلها على ورق، وللأسف فإن تاريخ السودان مملوء باتفاقات مكتوبة أحيانا، غير أن الخبرة تدل على أن الطرفين كانا سرعان ما يتجاهلان ما اتفقا عليه، لذلك تعمدت ومنذ زيارتى الأولى أن أكرر مرارا - فى اثناء مهمتى - ان اهتمامى هو بما يفعله الطرفان اهم بكثير مما يعدان به قولا أو كتابة، فالمهم عندى هو التنفيذ والأفعال لا الأقوال والتعهدات.

■■■

إن هذه الفقرات المحدودة والمنتقاة من مقدمة التقرير، تعطى القارئ أسلوب المعاصر لأمريكا فى إدارة الصراعات، وهو علم جديد له قواعده ومفاهيمه «وحيله»، بل وممارساته، فالسر يكمن ليس فقط فى المنهج وإدارة الحوار والإقناع، أى قوة الحجة، بل فى قوة «الدولة» التى يمثلها المفاوض الشخصى أو الممثل لدولة أو رئيس، فمن المفهوم ضمنيا أنه لا يعبر عن وجهة نظره الشخصية، وإنما الحوار والعبارات التى تقال تتضمن نفوذ وقدرة هذه الدولة أو تلك، لذلك نجد أن عبارة «العصا والجزرة» الشهيرة التى تجسد قوة الدولة التى تتوسط فى المنح والعطاء بسخاء من جانب، بينما فى قبضتها «العصا» فى اليد الأخرى، أى العقوبات والمنع والحصار والضغط السياسى والاقتصادى (وربما العسكرى إذا احتاج الأمر) نقول: إن عبارة «العصا والجزرة» قد تكرر ذكرها فى الجانب المتبقى الأكبر من التقرير، وهو الأمر الذى سوف نعرضه تباعا حسب تقدم سير المفاوضات وتطور المفاجآت الداخلية والخارجية، أو النتائج المتوقعة لزيارة الرئيس مبارك لأمريكا التى أتصور أنها سوف تتطرق لقضية السودان، خصوصا بعد نشر هذا التقرير الذى وضع السودان على عتبة السلام، ليس فقط بسبب المفاوض البارع والحازم جون دانفورث، وإنما لأن الظرف التاريخى مهيأ بالفعل للوصول إلى برنامج مسلسل الخطوات ينتهى بالوصول إلى اتفاق على «إيقاف النار» مقرونا بوجود الية للمراقبة الدولية لهذا الاتفاق، وهو الأمر الذى سأستعرض له فى مقام قادم، فمن خلال جرعة أخرى لفقرات منتقاة من تقرير جون دانفورث ستتضح الصورة بشكل أوضح لرؤية أمريكا فى حل النزاع.

هذا وقد دعانى السفير البريطانى فى مصر جون سوارز لمائدة عشاء بمقره التاريخى المعروف على كورنيش النيل يوم الثلاثاء الماضى، لألتقى مع مجموعة منتقاة لا يزيد أفرادها على عدد أصابع اليدين، بها سودانيون ومصريون معروفون، وكان العشاء بهدف فتح حوار مع الضيف المتميز ألن جوتلى الممثل الشخصى لتونى بلير رئيس وزراء بريطانيا فى مباحثات السلام، ومن المعروف أيضا أن بعض دول إفريقيا لها مندوبون على مستويات رفيعة للمساعدة فى مباحثات السلام، فضلا عن العديد من دول العالم الغربى التى تقدم معونات إنسانية للسودان من سنوات ولها معرفة تفصيلية بما يجرى هناك، فطار المسرح السودانى قريبا من طريق السلام، وكثير من أصدقائى السودانيين - قيادات وشخصيات معروفة - يتساءلون: أين الدول العربية من كل هذا الذى يجرى وفى مقدمتها مصر؟!

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية